معجزة النبيّ في كونه قارئاً أو أُمّياً

الشيخ محمد القائيني

تمهيد

اشتهر أن من معاجز الإسلام ما ظهر على يد النبيﷺ من العلوم والمعارف، ومن جملتها ما حواه القرآن الكريم وتضمّنه الفرقان العظيم مع كونهﷺ رجلاً أمّياً حسبما صرّح به الكتاب المجيد ونطقت به نصوص الروايات، فكان ذلك آية نزول هذه العلوم من مصدر الوحي وصدورها من مورده، بعد أن أبطل برهان القرآن قولهم: إنّما يعلمه بشر،

بقوله: ﴿ لِسٰانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَ هٰذٰا لِسٰانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾[1].

والكلام في هذه المعجزة ومعنى كون النبيﷺ أميّاً يتطلّب البحث ـ على سبيل الإجمال ـ عن حقيقة المعجزة ومعناها، وربطها بإثبات الدعاوي ومنها النبوّات، ثمّ البحث عن إعجاز القرآن ووجوه ذلك، ومن جملتها نزوله على يد رجل أُمّي.

فلذا نورد البحث في فصلين:

الفصل الأول: في المعجزة وحقيقتها والفرق بينها وبين السحر وكذا الكرامات

(١) النحل: ١٠٣.

وغير ذلك.

الفصل الثاني: في إعجاز القرآن على العموم وخصوص صدوره على يد النبيّ الأمّي ﷺ.

الفصل الأوّل: والكلام فيه في جهات:

الجهة الأولى: المعجزة من باب الإفعال مشتق من العجز.

والمراد بها في الاصطلاح عجز البشر عن تحقيق ما يأتي به صاحب المعجزة وعدم تمكّنهم من الإتيان بما أتى به، مع اقتران ذلك بدعوى مثل النبوة والرسالة والإمامة. ولا أخفيك أن بعض الشبهات المطروحة في الإعجاز لا تختصّ بما كان الفعل المعبر عنه بالمعجزة مقروناً بالدعوى، بل تشمل ما كان من قبيل الكرامات للأولياء والتي لا تقترن بدعوى، وسنوافيك بذلك إن شاء الله تعالى.

ثمّ إن العامل الأساس للإعجاز هو عجز الناس عن مجاراته وعدم تمكّنهم عن مضاهاته سواء كان ذاك الفعل غير ممكن للناس أصلاً أو كانوا لا يتمكّنون من فعله بالوجه الذي حقّقه صاحب المعجزة، من تحقيقه في زمان أو مكان خاصّين وإن كان فعله على وجه آخر داخلاً ممكناً لهم و مقدوراً.

وإن شئت فاصطلح على القسم الأول بالإعجاز المطلق، وعلى القسم الثاني بالإعجاز النسبي.

فإحياء الموتى ـ حيث فرض عدم تمكّن الناس العاديين من فعله بوجه ـ يعتبر معجزة مطلقة، وأمّا إنبات الزرع وإثمار الشجر في غير الموسم المناسب ومكانه فمعجزة نسبيّة، ونريد بذلك أن تحقيق هذا الفعل على الوجه الخاص معجزة وإن كان تحقيقه على وجه آخر لا يعد إعجازاً.

الجهة الثانية: هل العبرة في المعجزة بعجز طائفة من الناس عن فعله أو أنّه لا تكون المعجزة معجزةً حتى يعجز كل الناس وفي كل الأزمنة عن تحقيقه والإتيان به؟

وهناك احتمال ثالث وهو اعتبار عجز السابقين و المعاصرين للإعجاز والمقاربين لعصره بمقدار تسمح الطفرة في تقدّم العلوم عادة. وهذا بحث هامّ جدّاً حيث يترتب على ذلك أنّه إذا كانت العبرة في الإعجاز بعجز الكلّ وإلى الأبد فربما لم يمكن إثبات كون أمرٍ معجزة، حيث يحتمل مجيء زمان يتمكّن الناس أو بعضهم من فعل ذلك فيه، ومعه فلا يمكن للنّبي أن يثبت دعواه بالإعجاز؛ لعدم ثبوت كون فعلٍ معجزة إلّا بانقضاء زمانه بل بانقضاء كل زمان يحتمل صدور ذلك الفعل فيه. وهذا نقض للغرض من الإعجاز الذي هو إثبات دعوى الرسالة ونحوها.

وهذه الشبهة تتزايد قوّةً في هذه الأعصار التي نال العلم فيها تقدّماً وسيعاً في مجالات شتّىٰ وتمكّن الناس من نيل أُمور كانت تعدّ دعوى نيلها سابقاً من الأوهام، بل كان الناس لا يصدقونها في مطلع تحققها وربّما لا يصدق بعض الناس تحققها حتى الآن وبعد مضي زمان طويل من ذلك.

والذي ينبغي أن يقال هو: أن المناط في كون الشيء معجزة هو أن يكون صدورها على يد صاحبها على غير الوجه الطبيعي بحيث لا يحتمل أن يكون نالها بصورة طبيعية ولا يحتمل أن ينالها غيره كذلك، سواء عجز الناس المعاصرون له عن فعله أو لا، وسواء تمكن من تأخّر عن عصره من فعله أو لا.

وربّما يكون الإعجاز في صدور الفعل ابتداءً وإن كان صدوره ثانياً بعد ما صدر أوّلاً من صاحب المعجزة لا يعدّ إعجازاً.

فمعنى الإعجاز هو عجز غير صاحب المعجزة عن تحقيق فعلها على الوجه الذي تحقق من صاحبها وقد تقدّم تأكيد هذا في تقسيم المعجزة إلى المطلقة والنسبيّة.

والعبرة في إمكان التوصّل إلى فعل شيء بصورة طبيعية وأنّه صادر كذلك أولا بحكم العقلاء؛ حيث لا يحتملون كون صاحب المعجزة نال ما أتى به بصورة عادية؛ ولا يعتنون باحتمالات ضعيفة موهومة في هذا المجال كما لا يعتنون بأمثالها في ساير شؤون حياتهم.

فتكلّم الطفل في بعض مراحل الطفولة خرق للعادة وإن كان هـذا الطـفل لو باشر وليّه تعليمه النطق في نفس تلك المرحلة فتكلّم لا يعدّ إعجازاً، وربّما يكـون تكلّم الطفل في بعض المراحل مـعجزة مـطلقة لا يمكـن في العـادة وفي أيّ ظـرف وشروط تحقّقه.

نعم عجز البشر كلّهم طريق واضح إلى معرفة كون الفعل الصادر على وجه الإعجاز قد صدر بغير الوجه الطبيعي والمعتاد، وإلّا فلا موضوعية لعجز الكلّ عن فعله. وربّما لا يتيسر الجزم بالإعجاز ما دام لم يحرز عجز الكلّ أو يحـتمل تمكّـن البعض لولا ما ذكرناه.

وفي هذا المجال يواجهنا إشكال أُشير إليه في كلام للراوندي صـاحب كـتاب الخرائج أيضاً؛ وهو أنّه كيف يمكن الحكم بعجز البشر عن معارضة المعجزة بمـثلها مع عدم الإحاطة بهم في طول الزمان ولا عرضه سـيما الأزمـنة البـعيدة المـاضية والأمكنة القاصية، بل لا يمكن الإحاطة بمن يأتي في الأزمنة المـتأخرة وقـدرتهم وبدون ذلك لا يحرز الإعجاز؟!

ويمكن الإجابة عن ذلك بوجوه:

الوجه الأوّل: إنّه لو اعتبر في الإعجاز عجز البشر ـ كلّهم حتى الناس الذين يأتون بعد زمان المعجزة ـ إلّا أن العقلاء يعتبرون عجز معاصريهم ومـصاحبيهم طريقاً إلى معرفة باقي القدرات ويحصل لهم الوثوق بعدم اختلاف ساير الناس ممن يتواجدون في ساير الأمكنة، ولا من كان في ساير الأزمنة عن معاصريهم في المكنة والقابليّات.

لا أقول: بعدم اختلاف الناس في التطور والتقدم بحسب الأزمان المـتأخرة، فإن الوجدان شاهد بتمكّن الناس من أُمور لم يتصورها الناس القدامىٰ؛

بل أقول: بعدم اختلاف الناس في القدرة الطبيعيّة وإن كانت القدرة المـعتادة تتجلّى في أُمور مختلفة باختلاف الأزمنة والأمكنة فليس قدرة بعض البشر عـلى بعض الأمور التي كان يعجز عنه غيره من السابقين خارجاً عن القدرة الطـبيعية،

ولا أن تمكّنه من بعض الأشياء بعد عجز الغابرين خارج عن المعتاد.

بل العادة قاضية بسيرٍ في العلوم يقتضي أُموراً وأحداثاً لو كان الناس القدامى مكان المتأخرين لواكبوا ما واكبه المتأخرون من التقدم والوقوف على الجديد من الأحداث. إذن لا يعتني العقلاء في شؤونهم الدنيوية بهذه الاحتمالات كما تشهد بذلك سيرتهم في الأعصار السابقة على قبول المعاجز.

وليس هذا استدلالاً في المسائل العقلية بالإجماع التعبّدي ليكون مردوداً.

بل الغرض جعل الإجماع العقلائي منبّهاً على أمر قاطع. وهذا دليل شريف يأتي نحوه في كثير من المسائل العقائديّة فيما يتعلّق بالمبدأ والمعاد والرسالات وغيرها من المسائل العقلية.

مثلاً: لا يحتمل وجود حجر طبيعي يوجب أخذه الحياة الأبديّة مع إمكان الاستيلاء عليه بصورة طبيعيّة، وكذلك ما كان من هذا القبيل من الاحتمالات.

وهذا لا يعني ـ كما تقدم ـ توقف العلوم الطبيعية عن الازدهار والتقدّم وانحصارها بما سبق؛ ولذا ترى جهد العلماء في التطلع وجدّهم في التقدم.

الوجه الثاني: إن المعاجز صدرت على أيدي أشخاص عاديين في الاستعدادات الطبيعيّة والعلوم البشريّة وإن كانوا ممتازين في الصفات الإنسانية والخلق والقيم بل كانوا في العلوم الطبيعية دون المعتاد أحياناً. فترى أن نبي الإسلام ـ وهو أفضل أنبياء الله ـ كان أُمّياً حسب النصوص ولم ينقطعوا عن أُممهم زماناً يحتمل وقوفهم على العلوم الطبيعية بما يمكّنهم من الأُمور الخارقة.

الوجه الثالث: إن المعاجز تصدر على أيدي أصحابها بدون تكلّف، حتى التكلّف بمقدار لا بد منه في الأفعال الطبيعيّة فضلاً عمّا يتكلّفه الناس في الأفعال الغريبة والأشياء النادرة من سرعة الحركات التي لا بد منها أحياناً في السحر وما بحكمه من الأفعال الغريبة ومن التخفي على بعض الأعمال التي لامناص منها عادة في كثير من الأفعال غير المتعارفة؛

ولهذا كان الإعجاز في كل عصر مسانخاً للعلوم والفنون الرائجة في كل

عصر، ليثق الناس بعدم كون المعاجز من شؤون علومهم ولا هي من نتائج فنونهم. ولا يشق عليهم معرفة ذلك ولا يصعب على من له الأهليّة الوقوف عليه فيرتابون.

الوجه الرابع: إن الأنبياء وأصحاب المعاجز كانوا ـ باعتراف معاصريهم ـ أُمناء في قومهم صلحاء في بلادهم صادقين في مقالهم معروفين بالصلاح والسداد، وهذا ما يوجب الوثوق بصدقهم في دعواهم وفي فعل الإعجاز. وقد استند الأنبياء في دعوتهم الأمم ـ حسب ما يحكيه القرآن الكريم ـ إلى هذه الجهة ـ أعني وثاقتهم وأمانتهم ـ فكان الرسول يدعو الناس إلى قبول رسالته لكونه أميناً وثقة. وهذا استناد إلى مبنى عقلائي مقبول لديهم، وممّا يؤكد أنّهم اعتمدوا على مبنى عرفي وعقلائي أنّهم ضمّوا إلى ذلك ما يدفع التهمة عنهم، وذلك هو عدم مطالبتهم بأجرة على عملهم فلا ينتفعون بقبول دعوتهم بل ينتفع الناس بالإجابة؛

فإنّ هذه الوجوه تبعث على الوثوق بصدق الإعجاز ومدّعيه والاطمئنان بذلك.

وقد استدللنا بهذه الآيات في مباحث أُصول الفقه على حجيّة أخبار الثقات. وقد ورد في بعض النصوص حجّية خبر المدّعي الثقة إذا لم يعارضه حجّة أُخرى. وكيف كان فالآيات التي أشرنا إليها عدة نكتفي بذكر بعضها:

قال تعالى: ﴿وَ إِلىٰ عٰادٍ أَخٰاهُمْ هُوداً قٰالَ يٰا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ... أُبَلِّغُكُمْ رِسٰالاٰتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نٰاصِحٌ أَمِينٌ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قٰالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلاٰ تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ وَمٰا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاّٰ عَلىٰ رَبِّ الْعٰالَمِينَ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عٰادُ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قٰالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلاٰ تَتَّقُونَ إِنِّي

(١) الأعراف: ٦٨.

(٢) الشعراء: ١٠٦ ـ ١٠٩.

لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللهَ وَ أَطِيعُونِ وَ مٰا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاّٰ عَلىٰ رَبِّ الْعٰالَمِينَ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قٰالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صٰالِحٌ أَلاٰ تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللهَ وَ أَطِيعُونِ وَ مٰا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاّٰ عَلىٰ رَبِّ الْعٰالَمِينَ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قٰالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلاٰ تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللهَ وَ أَطِيعُونِ وَ مٰا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاّٰ عَلىٰ رَبِّ الْعٰالَمِينَ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحٰابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قٰالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلاٰ تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللهَ وَ أَطِيعُونِ وَ مٰا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاّٰ عَلىٰ رَبِّ الْعٰالَمِينَ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿وَ لَقَدْ فَتَنّٰا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَ جٰاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبٰادَ اللهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾[5].

ثمّ إنّه تجدر الإشارة إلى أن تشخيص الإعجاز عن السحر أمر صعب لا يقف عليه الناس العاديون مباشرة، بل لابد في ذلك من الخبرة والدقّة والمهارة ويكون اعتراف الخبراء الثقات سبباً لعلم غيرهم من الناس وموجباً لقطع ساير الناس كما حصل لهم القطع. ولا يجب أن يباشر الناس تشخيص المعاجز بأنفسهم بل يكفيهم أن يثقوا عبر مباشرة أهل الخبرة.

كما لا يجب وقوف الناس على المعاجز مباشرةً، بل يكفي الوقوف عليها عبر

---

(١) الشعراء: ١٢٣ ـ ١٢٧.

(٢) الشعراء: ١٤١ ـ ١٤٥.

(٣) الشعراء: ١٦٠ ـ ١٦٥.

(٤) الشعراء: ١٧٦ ـ ١٨٠.

(٥) الدخان: ١٧ ـ ١٨.

إخبار الثقات ممن عاصروا المعجزات، فإذا جاز الاعتماد على الأخبار في المعجزات السابقة جاز الاعتماد على أهل الخبرة في المعجزات المعاصرة؛ فيكون الوقوف على الإعجاز لأهل الخبرة مباشريّاً ولغيرهم بواسطتهم، كما يكون الوقوف على المعاجز لمعاصريها مباشرة وللمتأخرين عنها بإخبار معاصريها عنها.

مثلاً: قد لا يتيسّر للأعجمي المباشرة في تشخيص الإعجاز في الكلام العربي وفصاحته والحدّ الطبيعي من الفصاحة فيه، ولكنّه إذا وقف على اعتراف فصحاء العرب بل عظماء فصحائهم ممن يعترف لهم بذلك بإعجاز القرآن علم بالأمر.

والغرض من الإشارة إلى هذا الأمر هو تنبيه الناس على عدم الانخداع بمجرد دعوى الإعجاز من أناس لا حقيقة لدعواهم، وإنّما وقفوا على أمور لغرض التأمر عليهم، وقد كانت المعجزات مسانخةً لفنون أعصارها حتى لا يشتبه الأمر على أهل الخبرة وتقوم الحجّة عليهم، كما صرح بذلك في بعض النصوص.

فقد روى الكليني في الكافي بإسناده عن أبي يعقوب البغدادي قال: قال ابن

السكيت عن أبي الحسن عليه السلام: لماذا بعث الله موسى بن عمران عليه السلام بالعصا؟[1] ويده البيضاء وآلة السحر وبعث عيسىٰ عليه السلام بآلة الطب وبعث محمداً صلى الله عليه وآله علىٰ جميع الأنبياء بالكلام والخطب؟!

فقال أبوالحسن عليه السلام: إنّ الله لما بعث موسى عليه السلام كان الغالب علىٰ أهل عصره السحر فأتاهم من عند الله ممّا لم يكن في وسعهم مثله وما أبطل به سحرهم وأثبت به الحجّة عليهم. وإنّ الله بعث عيسى عليه السلام في وقت قد ظهرت فيه الزمانات واحتاج الناس إلى الطب وأتاهم من عند الله ممّا لم يكن عندهم مثله وممّا أحيا لهم الموتىٰ وأبرء الأكمه والأبرص بإذن الله وأثبت به الحجّة عليهم. وإنّ الله بعث محمّداً صلى الله عليه وآله في وقت كان الغالب علىٰ أهل عصره الخطب والكلام وأظنّه قال: الشعر، فأتاهم من عند الله من مواعظه وأحكامه ما أبطل به قولهم وأثبت به الحجة عليهم. فقال ابن السكيت: تالله ما رأيت مثلك قط.

قال العلامة المجلسي بعد ذكر الخبر: بيان: قوله: آلة السحر، أي ما يشبهه أو يبطله. والأوّل أظهر بقرينة الثاني. يعني الشطر الثاني من الخبر فيما يتعلق بمعجزة عيسىٰ[2].

الجهة الثالثة: في علة صدور المعاجز على يد الأنبياء والأئمة؛ وبعبارة جامعة: مدعي المنصب الإلهي، والربط بين الإعجاز وصدق مدعيه.

ثمّ على تقدير الربط بين المعجزة وصدق صاحبها فهل ينحصر طريق إثبات الدعوى بالإعجاز أو يمكن إثباتها بوجه آخر؟

ويمكن تحليل الربط بين الإعجاز وصدق صاحبه بأنّه راجع إلى الفطرة والعقل الغريزي؛ فإن تمكين خصوص مدعي منصب خاص بأمر يستلزم الاعتراف بدعواه في بناء العقلاء وفهمهم، ويكون التخلّف عن هذه الطريقة بدون الإعلام إغراء للناس. فالربط بين المعجز وبين الصدق إنّما هو في حد اللزوم لا مجرد

(١) أصول الكافي ١: ٢٤ ـ ٢٥ ورواه في البحار عن العلل والعيون والاحتجاج ١٧: ٢١٠.
(٢) نفس المصدر.

المناسبة غير الملزمة. ألا ترىٰ أنه إذا ادعى شخص الوكالة عن أحد بحضرته وجعل الدليل على ذلك تخصيص الموكل له بشيء دون الآخرين كالاستيلاء على مورد الوكالة، وسكت المدعى عليه عن الرد، يكون ذلك دليلاً واضحاً على إمضاء الوكالة وصحّتها.

ويشهد بما ذكرنا تعبير القرآن عن المعجزة بالبرهان والبيّنة والآية:

قال تعالى في معجزة موسىٰ عليه السلام: ﴿فَذٰانِكَ بُرْهٰانٰانِ مِنْ رَبِّكَ إِلىٰ فِرْعَوْنَ وَ مَلاَئِهِ﴾[1].

وقال تعالى في معجزة عيسىٰ عليه السلام: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللهِ وَ أُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَ الْأَبْرَصَ وَ أُحْيِ الْمَوْتىٰ بِإِذْنِ اللهِ وَ أُنَبِّئُكُمْ بِمٰا تَأْكُلُونَ وَ مٰا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَ هٰذٰا كِتٰابٌ أَنْزَلْنٰاهُ مُبٰارَكٌ... فَقَدْ جٰائَكُمْ بَيِّنَةٌ﴾[3].

وأمّا البحث عن إمكان إثبات الدعوى بغير الإعجاز، فالظاهر أنّه كذلك حيث إنّه يمكن تصديق المدعي، بسبب الإلهام أو إخبار صادق محقق؛ ولذا بَشّر بعض الأنبياء ممن سلف بمن يأتي بعده مشفوعاً ببيان علائم تعيّن من بشّر به. نعم الإلهام وإخبار الصادق قد ينتهيان إلى الإعجاز.

وهناك من يدعي أن طريق إثبات النبوّة هو موافقة أحكام الشريعة مع النظام والفطرة، بل يعتبرون ذلك هو الإعجاز، وأمّا ما يصدر على أيدي أصحاب الرسالات من خوارق فهي أُمور لا حاجة إليها بل ربّما قيل: إنّها لاغية غير عقلانيّة. وهذه الدعوىٰ وإن أمكن الموافقة عليها في شطرها الأوّل؛ إن لم يكن المقصود منها الحصر استطراقاً إلى إبطال المعاجز. ولكنها باطلة في شطرها الأخير.

---

(١) القصص: ٣٢.

(٢) آل عمران: ٤٣.

(٣) الأنعام: ١٥٨.

وهناك بحث في إمكان صدور المعجزة من غير الصادق في دعواه لايهمّ التعرض له، والحق أنّه لا محذور في تمكّن غير الصادق ممّا لا يتمكّن منه الناس عموماً إذا لم يستلزم إغراءً للناس ولا إغوائهم حسبما حققناه آنفاً من ملاك اعتبار الإعجاز؛ لكون دعوى غير الصادق مشفوعة بحجّة عقلية تبطل دعواه. وإن كان في التعبير عن مثل هذا الخارق بالمعجزة مسامحة. ويشهد لما ذكرنا قصّة السامري واستجابة بعض الدعوات وغير ذلك ممّا شهد به القرآن وغيره.

الجهة الرابعة: في إمكان الإعجاز و تعقّله وهل أن المعجزة توافق قانون العلّة والمعلول واحتياج المعلول إلى العلّة أو أنّها تخالفها وتضادّها؟

وقبل البحث عن موافقة الإعجاز لقانون العلّة لابد من بحث إجمالي عن هذا القانون ومضمونه ومدى صحته ثمّ مقايسة الإعجاز معه فنقول:

إن قانون العلّة أمر بديهي فطري مسلّم قبل أن يكون مؤيداً بحكم العقل. ويعترف به كلّ ذي عقل سليم بل كلّ ذي شعور كالحيوانات وإن لم تكن ذوات عقول. وحقيقة هذا القانون هو امتناع تحقّق الحادث والممكن في ذاته بدون علّة تحدثه وتفيض وجوده ـ ولا تفيض الوجود عليه ـ فإن الممكن ليس شيئاً قبل تحقّقه ليكون قابلاً لفيض، بل هو عدم محض كالممتنع، إلّا أن الممتنع لا يمكن تحققه أصلاً والممكن يتحقّق بسبب العلّة، فنسبة الوجود والعدم إلى الممكن إذا كانت واحدة لا يعقل ترجّح الوجود على العدم إلّا بعلّة من خارج الذات. وأمّا ترجح العدم فيكفي له عدم وجود مرجح الوجود فعدم علة الوجود علّة العدم. فليس العدم أيضاً فاقداً للعلّة فما ظنّك بالوجود.

فقانون حاجة الممكن إلى العلّة في وجوده أمر ضروري لا مجال لإنكاره بعد بداهته وكونه مفطوراً لدى الناس بل غريزياً لذوي الشعور.

ولا مناص من تحليل المعجزة وتصويرها بما لا يتنافى مع هذا القانون. وتجدر الإشارة إلى أن القرآن الكريم مع تصديقه الإعجاز يصدّق القانون المتقدم، بل هذا القانون هو من جملة ما يعتمد عليه القرآن بجدّ وأصالة في إثبات حاجة العالم

والسماوات والأرض إلى مبدأ وعلّة. ونحن ـ رعايةً للاختصار ـ نشير إلى بعض الآيات المشيرة إلى قانون العلّة والتي تعترف به صراحة:

١ ـ قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوٰاتاً فَأَحْيٰاكُمْ﴾[١].

ومفهوم الآية أنّه كيف تنكرون العلّة وقانونها مع وضوح الحدوث فيكم وأنّكم لم تكونوا ثمّ وجدتم.؟!

٢ ـ وقال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخٰالِقُونَ أَمْ خَلَقُوا السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ بَلْ لاٰ يُوقِنُونَ﴾[٢].

والمعنى أنّهم هل وُجدوا بدون علّة توجدهم أم أنّهم العلة لوجود أنفسهم فباشروا إيجاد نفوسهم. ثمّ السماوات والأرض هي أيضاً بحاجة إلى علة، فهل إنّهم خلقوها؟ وإذا لم يكونوا خالقين للسماوات فلا مناص لهم من الاعتراف بوجود خالقٍ لها وهو الله. وقد نبّه الله على هذا القانون بمجرد السؤال ولم يباشر بالإجابة إحالةً للجواب إلى الوضوح كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَ الَّذِينَ لاٰ يَعْلَمُونَ﴾ فالقرآن لايعترف بقانون العلّة فقط، بل بوضوحه وبداهته أيضاً.

ولا بأس بالإشارة إلى بعض الأخبار الدالة على الاعتراف بقانون العلّة:

ففي رواية عن عبدالله بن سنان عن أبي عبدالله عليه السلام أنّه قال في الربوبيّة العظمىٰ ثم الإلهية الكبرى: «لا يكون الشيء لا من شيء إلّا الله...»[٣].

والاستثناء في الخبر ليس عن قانون العلّة فإنّها لا تقبل الاستثناء، بل هو استثناء عمّا هو أعم من القانون فيكون استثناء وجود الله بغير علّة من الاستثناء المنقطع فلا تغفل.

إذا تمهد شأن قانون العلّة نأتي إلى مسألة المعجزة وشأنها مع القانون الآنف

---

(١) البقرة: ٢٨.

(٢) البقرة: ١٦٤.

(٣) البحار ٤: ١٤٨، الحديث ٢.

فنقول: الإعجاز من الحوادث والوجودات الممكنة فلا مناص له من الاندراج في القانون المتقدم، وبالنتيجة لا يجوز وقوع الإعجاز بدون علّة. ولم يدّع أصحاب المعاجز ولا المعترفون لهم بها أن المعجزات تصدر بلا علّة، وإنّما الذي يدعى هو: اختلاف علّة المعاجز عن ساير العلل وأن علّة المعجزة في انحصار وليس في يد عامّة الناس.

فالمعجزة توسعة لموضوع قاعدة العلّة وقانونها، لا توسعة للحكم بدون موضوع. وليس هناك في العقل ما يحصر العلّة في خصوص شيء. بل وجود علل متعددة لحادث واحد في الكون دليل واضح على عدم لزوم انحصار العلّة في شيء واحد.

فإذا وجدت علل متعددة كونية عامّة لبعض الأحداث، فما المانع من وجود علّة أو علل كونيّة خاصّة لذلك الحادث؟ ولا ضرورة لكون العلل بأسرها في يد عامة الناس، فالحرارة لها علّة يناالها الناس هي النار ولها علّة خارجة عن منالهم هي الشمس. وتوليد الأمثال في الإنسان بصورة وفي النبات بصورة اُخرى وفي بدء الخلق كان بصورة غير دوامه.

والصعود لبعض الأشياء بالسلالم ولبعضها بالطيران ولبعضها بالطفرة ولا مانع أن يكون لبعض بإرادة.

فاتضح أن المعجزة لا تخرق قانون العلّة وإنّما توسّع موضوعها.

وما في بعض الكلمات من أن الواحد لا يصدر إلّا من واحد، يراد بذلك أنّه لابد من مسانخة بين المعلول والعلّة، وتكون جهة مشتركة بين العلل المختلفة لتأثيرها في معلول واحد، ولا يراد بذلك عدم إمكان صدور واحد من أشياء متعددة مختلفة بالصورة.

ثم إنه لو فرض إمكان التخلّف في المعاجز عن قانون العلّة لم تفعل المعجزة أثرها المطلوب، فإن المعجزة لا تؤثر في إثبات الدعوىٰ إلّا إذا انضم إليها قانون العلّة، وتوضيح ذلك:

إن المعجزة إنّما تثبت صدق صاحبها إذا كان التأثير في الكون ثابتاً عبر العلل والضوابط، وإلّا فلو أمكن الهرج فلا يمكن الاستناد إلى المعجزة في صدق صاحبها بعد احتمال صدور ما يسمّى بالمعجزة بدون ضابط وقاعدة.

إذن، فإنكار الإعجاز لا يستند إلى إثبات قاعدة العلّة، بل هو مستند إلى دعوى انحصار العلّة في العلل المأنوسة وهذا غير قاعدة العلّة. وربّما كان تفسيراً لها ولكنّه تفسير باطل. وكأن هذا التفسير هو مقصود الكفّار في قضيّة ولادة المسيح عليه السلام، حيث إن العلّة المتعارفة لتوليد النسل هو الولادة من الأب، فردّ عليهم في القرآن الكريم: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسىٰ عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[1] وكأنّه على التفسير الموهوم المتقدّم لقانون العلّة أنكر الكفّارُ المعادَ حيث ذكروا أنّه: ﴿أَ إِذَا كُنَّا عِظَاماً وَ رُفَاتاً أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً﴾ ولم يكن ذلك بدعاً منهم ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ قَالُوا أَ إِذَا مِتْنَا وَ كُنَّا تُرَاباً وَ عِظَاماً أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَ آبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾[2].

وقد ردّ عليهم بوجوه:

الوجه الأوّل: عدم انحصار قانون العلّة في خصوص العلل المأنوسة ليستلزم إنكار المعاد.

الوجه الثاني: تعدد نظام العلل المأنوسة في الحياة المادّية، ولهذا قيس المعاد والحياة الأخرى على الحياة النباتيّة التي تختلف عن الحياة الحيوانية.

قال تعالى: ﴿فَانْظُرْ إِلىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذٰلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتىٰ وَ هُوَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[3].

﴿وَ اللهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلىٰ بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ

(١) آل عمران: ٥٩.

(٢) راجع سورة الحج: ٨١ وما بعدها، وغير هذه السورة أيضاً.

(٣) الروم: ٥٠.

ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها كَذٰلِكَ النُّشُورُ ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿ وَ أَحْيَيْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذٰلِكَ الْخُرُوجُ ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿ وَ مِنْ آياتِهِ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خاشِعَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْياها لَمُحْيِ الْمَوْتىٰ إِنَّهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[٣].

الوجه الثالث: اعتبار التمكن من أمر دليلاً على التمكّن من إعادته وتكراره.

قال تعالى: ﴿ وَ ضَرَبَ لَنا مَثَلاً وَ نَسِيَ خَلْقَهُ قالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾[٤].

وقال تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنْسانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً * أَ لَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنىٰ * ثُمَّ كانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوّٰى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَ ٱلْأُنْثىٰ * أَ لَيْسَ ذٰلِكَ بِقادِرٍ عَلىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتىٰ ﴾[٥].

الوجه الرابع: الاستدلال لإثبات المعاد بالتمكّن والقدرة الزائدة على إيجاد الحياة الأولى.

قال تعالى: ﴿ أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّماوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضَ وَ لَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقادِرٍ عَلىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتىٰ بَلىٰ إِنَّهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[٦].

وقد جمع بين الوجهين الثاني والثالث في سورة الحج[٧].

فاتضح بما قررناه بطلان حسبان منافاة الاعتراف بالمعجزة للاعتراف بقانون العلّة التي لا مناص منها في إثبات المبدأ وغيره.

وربما أُيدت دعوى بطلان المعاجز بأن المعجزة تنافي بعض الآيات عدا عن

(١) الفاطر: ٩.

(٢) ق: ١١.

(٣) فصلت: ٤٩.

(٤) يس: ٧٨ و ٧٩.

(٥) القيامة: ٣٦ ـ ٤٠.

(٦) الأحقاف: ٣٣.

(٧) الحج: ٥.

منافاتها لقانون العلّة، قال تعالى: ﴿وَ قٰالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتّٰى تَفْجُرَ لَنٰا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَ عِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهٰارَ خِلاٰلَهٰا تَفْجِيراً * أَوْ تُسْقِطَ السَّمٰاءَ كَمٰا زَعَمْتَ عَلَيْنٰا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللّٰهِ وَ الْمَلاٰئِكَةِ قَبِيلاً * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقىٰ فِي السَّمٰاءِ وَ لَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتّٰى تُنَزِّلَ عَلَيْنٰا كِتٰاباً نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحٰانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلاّٰ بَشَراً رَسُولاً﴾[1].

فزُعم أن المراد من قوله: هل كنت إلّا بشراً، هو إنكار إمكان المعجزة وكونها تخلّفاً عن نظام الكون والعلل.

وربما زيد لإثبات الدعوى المتقدمة، الاستدلال بقوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللّٰهِ تَبْدِيلاً﴾[2].

ويرد على هذه المغالطات أن آية سورة الإسراء لا ربط لها بإنكار المعجزة، وإنما هي بصدد الردّ على شهوات الكفّار واقتراحاتهم وأهوائهم، وأن الرسول بشر لا يقدر على ما يريده الناس وتهواه نفوسهم[3].

وأمّا آية سنّة الله فواضحٌ عدم إنكارها للمعجزة بعد كون المعجزة أيضاً من سنن الله في إثبات الرسالات فكانت الآية مثبتة لها لانافية إيّاها.

الجهة الخامسة: في صدور المعجزة ووقوعها خارجاً من الأنبياء والأولياء بعد ما تقدم من إمكانها وعدم المحذور فيها.

لا ينبغي الريب في صدور أُمور خارقة للعادة لا توافق القوانين العامّة الطبيعيّة، على مرّ الدهور السالفة، من أُناس عرفوا بالنبوّة والصلاح والسداد، وقد كثر النقل والحكاية على أيدي الثقات والصلحاء بما لا يبقي الشك ولا يدع الترديد،

---

(١) الإسراء: ٩٠ ـ ٩٣.

(٢) الفتح: ٢٣ وغيرها.

(٣) وهناك بحث قرآني وروائي في كون المعاجز من أفعال أصحاب الرسالات أو هي فعل الله مباشرة مقارنة لدعواهم لايهمّنا؛ حيث لا يؤثر في الجهات المقصودة في المقام، وظاهر الآيات والنصوص هو وقوع الأمرين، وقد فصّلنا الكلام في بعض الرسائل.

وهذا ما يصطلح عليه بالتواتر الإجمالي؛ فإن المعجزات لو فرض عدم تواترها بأشخاصها لفظيّاً أو معنويّاً ولكنّها متواترة إجمالاً بمعنى أنّه يمتنع تواطؤ هذا العدد الكبير على الكذب في الأمور المختلفة والمتباينة بغض النظر عن وثاقة الرواة والنقلة، فكيف مع فرض وثاقتهم وصلاحهم؟!

هذا، مع أنّه يمكن أن يقال: إن شأن نبيّ الإسلام والقرآن وأهل بيته لدى المنصفين هو شأن يفيد الوثوق بما يخبرون به بعدما عرفوا لدى عامّة الناس بالوثاقة والأمانة حتى لمن لا يعترف لهم بالنبوة والإمامة.

وقد أسمعناك اعتماد الأنبياء ـ حسب حكاية القرآن ـ في إقناع الأُمم على كونهم أُمناء ثقات لدى الناس بغض النظر عن دعوى الرسالة التي أورثتهم التهمة.

وبناء العقلاء في مثل ذلك على الاعتماد والركون لولا التعنّت والعناد.

وعلى هذا الأساس تفيد إخبارات القرآن وأخبار نبي الإسلام والأئمة من أهل بيته العظام، الوثوق بما أخبروا به بالغض عن ضمّ أخبار سائر الأنبياء والأُمناء فلا يكاد يقلّ الوثوق الحاصل من ذلك لليهود والنصارى عمّا يحصل لهم من التوراة والأناجيل الموجودة؛ هذا. سيّما وقد صدّق القرآنَ والنبيَّ والأئمّةَ من أهل بيته المنصفون من اليهود والنصارى وساير النحل في أخبارهم وحكاياتهم، وليس هنا مجال تفصيلها فراجع كتاب عيون أخبار الرضا وغيره.

ثمّ إن أخبار الأنبياء والأوصياء وإن لم تصل إلينا مباشرةً لكنّها وصلتنا بواسطة الثقات من الناس ممن عرفوا بالصلاح والأمانة ـ هذا بالغض عن التواتر في أسانيد الأخبار ـ حتى أنك ترى أن من يخالفهم في الدين أو المذهب يعترف لهم بالصدق والأمانة كما كان يعترف لسادتهم ومواليهم من الأنبياء والأوصياء من لا يصدّقهم في دعوى النبوة والإمامة.

وقد جمع الإمام شرف الدين العاملي في كتاب المراجعات طائفةً من الشيعة ممن استند إليهم أهل السنّة في الروايات لصدقهم وورعهم بعد أن رموهم بالرفض والتشيع واتهموهم بالغلوّ والإفراط وما شابهها، ولو أنّهم كانوا يرمونهم بالكفر

والزندقة كان أهون عليهم، ومع ذلك اعتمدوا عليهم لما لم يجدوا بُدّاً من ذلك لأمانتهم وورعهم، وذكر في المراجعات أن هذا العدد ـ وقد أنهاه إلى مائة ـ هم بعض الشيعة ممّن يعتمد عليهم أهل السنّة، وإلّا فهناك غيرهم ممن يعتمدون عليهم من الشيعة. ونظير ما في المراجعات ما ذكره العلامة الأميني صاحب الغدير.

والغرض من هذا البيان هو أنّه لا ينحصر الاعتماد على أرباب الأديان لمن يوافقهم في الدين والملّة، ولا يتوقف التعويل على أهل مذهب على موافقتهم في النحلة بل يجوز لغيرهم الاعتماد عليهم بعدما كان يعتمد المخالف لهم في المذهب عليهم؛ لكونهم ثقات في القول متورّعين عن الكذب، فلا يكون إثبات المعاجز بإخبار أصحاب المذاهب دوريّاً ولا أن حكايتها بواسطة منتحلي الأديان لغواً؛ هذا.

وهناك بعض المعجزات خالدة حيّة يمكن الوقوف عليها بالمباشرة بلا حاجة إلى نقل أو حكاية، ولا تتوقف الإحاطة بها على إخبار أو رواية، وقد تقدّم أن بعضهم أنكر الحاجة إلى الأُمور الخارقة للعادة من قبيل إحياء الموتى واعتبر الإعجاز ما كان من قبيل نظم الأحكام الثابتة في الشريعة وموافقتها للفطرة.

ومن جملة المعاجز المعاصرة للأجيال هو القرآن الكريم الذي ﴿ لاٰ يَأْتِيهِ الْبٰاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لاٰ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾، وهي معجزة خالدة بحفظ الله، حيث قال: ﴿ إِنّٰا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنّٰا لَهُ

لَحٰافِظُونَ﴾، وقد تحدّى البشر في دعوته حيث قال: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمّٰا نَزَّلْنٰا عَلىٰ عَبْدِنٰا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَ ادْعُوا شُهَدٰاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ﴾. وسيأتي بعض الكلام في ذلك في الفصل الآتي إن شاء الله تعالى.

الفصل الثاني: في إعجاز القرآن الكريم

وتفصيل البحث فيه محوّل إلى مجال آخر والذي نحن بصدده هو أنّ من جملة وجوه إعجاز القرآن هو صدوره على يد رجل أمّي معروف هو وقومه بذلك مع ما اشتمل عليه القرآن من المعارف التي تنبىء عن علم صاحبه، بل قد حوىٰ حقائق تحكي عن عظيم علومه.

وقد وُصف النبيّ صلى الله عليه وآله بالأُمّية في القرآن وغيره من الحديث والسير، بل هو من أوصافه المعروفة وقد تكرّر في القرآن ذكره:

١ ـ قال تعالى: ﴿قٰالَ عَذٰابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشٰاءُ وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهٰا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكٰاةَ وَ الَّذِينَ هُمْ بِآيٰاتِنٰا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرٰاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهٰاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبٰاتِ وَ يُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبٰائِثَ وَ يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَ الْأَغْلاٰلَ الَّتِي كٰانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَ عَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * قُلْ يٰا أَيُّهَا النّٰاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ يُحيِي وَ يُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَ رَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَ كَلِمٰاتِهِ﴾[1].

٢ ـ وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيٰاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتٰابَ وَ الْحِكْمَةَ﴾[2].

---

(١) الأعراف: ١٥٦ ـ ١٥٨.

(٢) الجمعة: ٢.

٣ ـ وقال تعالى: ﴿ وَ كَذٰلِكَ أَنْزَلْنٰا إِلَيْكَ الْكِتٰابَ فَالَّذِينَ آتَيْنٰاهُمُ الْكِتٰابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ مِنْ هٰؤُلاٰءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَ مٰا يَجْحَدُ بِآيٰاتِنٰا إِلاَّ الْكٰافِرُونَ * وَ مٰا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتٰابٍ وَ لاٰ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لاَرْتٰابَ الْمُبْطِلُونَ * بَلْ هُوَ آيٰاتٌ بَيِّنٰاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾[1].

والمعروف أن الأمّي هو الذي لا يعرف الكتابة ولا قراءة الكتب ويحتمل أن يكون معناه هو من لا يعرف العلوم المفتقرة إلى الكسب والتعلّم الموقوفة عادة على القراءة والكتابة، ويكون عدم معرفة الكتاب والقراءة أمارة على الأمّية.

قال ابن منظور: الأمّي الّذي لا يكتب. قال الزجاج: الأمي الذي على خلقة الأمة، لم يتعلم الكتاب فهو على جبلته. قال أبو إسحاق: معنى الأمي، المنسوب إلى ما عليه جبلته أمّه، أي الذي لا يكتب فهو في أنّه لا يكتب، أمي؛ لأنّ الكتابة هي مكتسبة فكأنّه نسب إلى ما يولد عليه أي على ما ولدته أمّه عليه. وكانت الكتابة في العرب من أهل الطائف تعلّموها من رجل من أهل الحيرة وأخذها أهل الحيرة عن أهل الدينار.

وفي الحديث: إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب، أراد أنّهم على أصل ولادة أمهم، لم يتعلموا الكتابة والحساب فهم على جبلتهم الأُولى.

وفي الحديث: بعثت إلى أُمّة أمية. قيل للعرب: الأميون؛ لأنّ الكتابة كانت فيهم عزيزة أو عديمة. ومنه قوله: ﴿في الأُميين رسولاً منهم...﴾.

وقيل لسيدنا محمد رسول الله ﷺ الأُمّي؛ لأنّ أمة العرب لم تكن تكتب ولا تقرأ المكتوب وبعثه الله رسولاً وهو لا يكتب ولا يقرأ من كتاب، وكانت هذه الحالة إحدى آياته المعجزة لأنّه ﷺ تلا عليهم كتاب الله منظوماً تارة بعد أُخرى بالنظم الذي أنزل عليه فلم يغيره ولم يبدل ألفاظه؛ وكان الخطيب من العرب إذا ارتجل خطبة ثمّ عادها زاد فيها ونقص فحفظه الله عز وجل على نبيه كما أنزله وأبانه

(١) العنكبوت: ٤٧ ـ ٤٩.

من سائر من بعثه إليهم بهذه الآية التي باين بينه وبينهم بها ففي ذلك أنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتٰابٍ وَلاٰ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لاَرْتٰابَ الْمُبْطِلُونَ﴾، الذين كفروا ولقالوا: إنّه وجد هذه الأقاصيص مكتوبة حفظها من الكتب[1].

وقال الطريحي: الأمّي في كلام العرب الذي لا كتاب له من مشركي العرب[2].

وقال الراغب: ويقال لكل ما كان أصلاً لوجود شيء أو تربيته أو إصلاحه أو مبدئه: أمّ وقيل: سمّي بذلك لنسبته إلى أُمّ القرىٰ[3].

وعن القاموس: أمّ القرىٰ مكّة؛ لأنّها توسطت الأرض فيما زعموا، أو لأنّها قبلة الناس يؤمّونها أو لأنّها أعظم القرى شأناً[4].

وفي المصباح: الأمّي في كلام العرب الذي لا يحسن الكتابة، فقيل: نسبة إلى الأمّ، وقيل: نسبة إلى أمّة العرب؛ لأنّه كان أكثرهم أمّيين[5].

وفي دائرة المعارف الإسلاميّة: الأمّي عند العرب هو الذي لا يكتب... قال أبو حيّان في تفسير البحر المحيط: الأمّي الّذى لا يقرأ في كتاب ولا يكتب... وقد ثبت بالتواتر الذي لا شك فيه أن النبي صلى الله عليه وآله كان أُمّياً بمعنى أنّه لا يعرف القراءة والكتاب[6].

وقال العلّامة المجلسي في البحار: «ومن أسمائه صلى الله عليه وآله الرسول النبي الأمّي، إلى قوله: وأمّا الأمّي فقال قوم: إنّه منسوب إلى مكة وهى أم‌القرى كما قال تعالى: ﴿بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً﴾، وقال آخرون: أراد الذي لا يكتب؛ قال ابن فارس: وهذا هو الوجه لأنّه أدل على معجزة إلى قوله: وروي عنه: نحن أمة أمية لا نقرأ

---

(١) لسان العرب.

(٢) مجمع البحرين.

(٣) المفردات.

(٤) القاموس.

(٥) المصباح.

(٦) دائرة المعارف، محمد بن جرير الطبري، التفسير ١: ٢٩٦؛ بولاف.

ولا نكتب. وقد روي غير هذا»[1].

وقال في موضع آخر: وقيل: أمّي منسوب إلى أمّة يعني جماعة عامة؛ والعامة لا تعلم الكتابة. ويقال: سمي بذلك لأنّه من العرب وتدعى العرب الأميون. وقوله تعالى: ﴿**هو الذي بعث في الأميين**﴾؛ وقيل: لأنه يقول يوم القيامة: أمتي أمتي. وقيل: لأنه الأصل وهو بمنزلة الأم التي يرجع الأولاد إليها، ومنه أم القرى. وقيل: لأنّه لأمته بمنزلة الوالدة الشفيقة بولدها فإذا نودي يوم القيامة: يوم يفر المرء من أخيه، تمسك بأمته. وقيل: منسوب إلى أم وهي لا تعلم الكتابة لأنّ الكتابة من أمارات الرجل. وقالوا: نسب إلى أمّة يعني الخلقة قال الأعشى:

وإنّ معاوية الأكرمين حسان الوجوه طوال الأمم

قال المرتضى في قوله تعالى: ﴿**وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ**﴾: ظاهر الآية تقتضي نفي الكتابة والقراءة بما قبل النبوة دون ما بعدها، ولأنّ التعليل في الآية يقتضي اختصاص النفي بما قبل النبوة لأنّهم إنّما يرتابون في نبوته لو كان يحسنها قبل النبوة فأمّا بعدها فلا تعلق به بالريبة فيجوز أن يكون تعلمها من جبرئيل بعد النبوة ويجوز أن لم يتعلم فلا نعلم. قال الشعبي وجماعة من أهل العلم: ما مات رسول الله صلى الله عليه وآله حتى كتب وقرأ. وقد شهر في الصحاح والتواريخ قوله صلى الله عليه وآله: إيتوني بدوات وكتف أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً[2].

وقال في موضع ثالث: قال الطبرسي رحمه الله: الأمي، ذكر في معناه أقوال: أحدها الذي لا يكتب ولا يقرء. وثانيها: إنّه منسوب إلى الأمّة والمعنى أنّه على جبلة الأمّة قبل استفادة الكتابة وقيل: إنّ المراد بالأمة العرب لأنّها لم تكن تحسن الكتابة. وثالثها: إنّه منسوب إلى الأُمّ والمعنى أنّه على ما ولدته أمه قبل تعلم الكتابة. ورابعها: إنّه منسوب إلى أُمّ القرى وهو مكة وهو المروي عن أبي جعفر عليه السلام.

---

(١) بحارالأنوار ١٦: ١١٩.

(٢) بحارالأنوار ١٦: ١٣٥.

وفي قوله تعالى: ﴿إِذاً لاَرْتابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ أي ولو كنت تقرأ كتاباً أو تكتبه لوجد المبطلون طريقاً إلى الشك في أمرك ولقالوا: إنّما يقرأ علينا ما جمعه من كتب الأولين.

قال السيد المرتضى قدس سره: هذه الآية نزلت على أنّ النبي صلى الله عليه وآله ما كان يحسن الكتابة قبل النبوة، وأمّا بعدها فالذي نعتقده في ذلك: التجويز لكونه عالماً بالقراءة والكتابة، والتجويز لكونه غير عالم بهما من غير قطع على أحد الأمرين. وظاهر الآية تقتضي النفي بما قبل النبوة لأنّ المبطلين إنّما يرتابون في نبوته صلى الله عليه وآله لو كان يحسن الكتابة قبل النبوة فأمّا بعد النبوة فلا تعلق بالريبة والتهمة فيجوز أن يكون قد تعلمها من جبرئيل عليه السلام بعد النبوة[1].

أقول: يظهر من هذا الكلام أنّ ما نسبه بعض المتأخرين إلى السيد المرتضى من كون النبيّ صلى الله عليه وآله أمّياً بعد البعثة أيضاً ليس تامّاً وأنّ السيد متوقّف في المسألة.

ثمّ إن صاحب البحار ذكر روايات يدعى ظهورها في أن النبيّ صلى الله عليه وآله كان لا يكتب ولا تنفي القراءة. وأيضاً ذكر روايات تنفي كونه صلى الله عليه وآله أمّياً في القراءة والكتابة ثمّ قال:

«بيان: يمكن الجمع بين هذه الأخبار بوجهين: الأوّل: أنّه صلى الله عليه وآله كان يقدر على الكتابة، ولكن كان لا يكتب، لضرب من المصلحة. الثاني: أن نحمل أخبار عدم الكتابة والقراءة علىٰ عدم تعلمها من البشر وسائر الأخبار علىٰ أنّه كان يقدر عليها بالإعجاز.

وقال: وكيف لا يعلم من كان عالماً بعلوم الأوّلين والآخرين أن هذه النقوش موضوعة لهذه الحرف[2].

وقال الرازي في تفسيره: قال الزجاج: معنى الأمّي الذي هو على صفة أمّة

(١) المصدر نفسه: ٨٣ ـ ٨٤.

(٢) المصدر نفسه: ١٣٤.

العرب، قال عليه الصلوة والسلام: إنّا أمة أمـية لا نكـتب ولا نحسب. فـالعرب أكثرهم ما كانوا يكتبون ولا يقرأون والنبي عليه الصلوة والسلام كان كذلك فلهذا السبب وصفه بكونه أمياً[1].

وقال في تفسير نمونه (الأمثل) ما ترجمته:

والخطأ الّذي ينبغي التجنب عنه هو أنّ عدم الدراسة لا يـعني عـدم العـلم والذين يفسّرون لفظة الأمّي بعدم العلم كأنّهم لم يلتفتوا إلى الفرق بين الأمـرين، فإنّه لا مانع من علم النّبيﷺ ـ بتعليم إلهي ـ بالقراءة أو بها وبالكتابة من دون أن يكون تعلّم ذلك من إنسان... إلى أن قال:

١ ـ لم يتعلم النّبيﷺ القراءة والكتابة من إنسان قطعاً.

٢ ـ لا دليل صحيح أو معتبر فيما بأيدينا على أن النّبيﷺ كتب شيئاً أو قرأ قبل النّبوة ولا بعدها.

٣ ـ لا ينافي هذا كون النّبيﷺ قادراً على القراءة والكتابة بتعليم إلهي[2].

إذا عرفت ما مهّدناه، فالبحث عن كون النّبيﷺ اُمّياً تارة بملاحظة حالهﷺ قبل البعثة وأخرىٰ بعدها فالكلام في مقامين:

وتمـهيداً للبحث ننقل بعض كلمات أصحاب التاريخ فيما يتعلّق بالوضع العـام لثقافة العرب بشأن العلم والكتابة؛ قال جرجي زيدان:

لم يكن العرب في جاهليتهم يعرفون الكتابة إلا نفراً قليلين ولم يكن كـتابتهم بالأحرف العربية المعروفة اليوم وإنّما كانوا يكتبون بالأحرف العبرانية أو بالأحرف النبطية. ولما ظهر الإسلام، لم يكن يكتب بالعربية إلا بضعة عشر إنساناً كلهم من الصحابة، ومنهم علي بن أبي طـالب، وعـمر بـن الخـطاب، وطـلحة، وعـثمان، وأبوسفيان، وولداه، ومعاوية و يزيد وغيرهم، فكان علي وعثمان وزيد بن ثابت وعبدالله بن الأرقم، ممن كتب للنبي، لأنّه لم يكن يكتب ولا يقرأ، فكتبوا له سور

(١) تفسير الرازي، سورة الأعراف: ١٥٧.

(٢) تفسير الأمثل: ذيل سورة الأعراف: ١٥٧.

القرآن والكتب التي خاطب بها الملوك يدعوهم إلى الإسلام. وكان بعضهم يكتب له حوائجه والبعض الآخر يكتبون بين الناس في المدينة والبعض الآخر يكتبون بين القوم في مياههم وقبائلهم وفي دور الأنصار من الرجال والنساء. ولما تولى أبوبكر، كان عثمان بن عفان كاتبه يكتب له الكتب إلى العمال والقواد وصارت الكتابة من مناصب الحكومة[1].

وقال أيضاً: ليس في آثار العرب بالحجاز ما يدل على أنّهم كانوا يعرفون الكتابة قبل الإسلام مع أنهم كانوا محاطين شمالاً وجنوباً بأمم من العرب خلّفوا نقوشاً كتابية كثيرة وأشهر تلك الأُمم حِمْيَر في اليمن، والأنباط في الشمال، والسبب في ذلك أنّ الحجاز أو عرب مضر كانت البداوة غالبة على طباعهم والكتابة من الصنايع الحضرية... فجاء الإسلام والكتابة معروفة في الحجاز ولكنها غير شائعة فلم يكن يعرف الكتابة في مكة إلا بضعة عشر إنساناً أكثرهم من كبار الصحابة[2].

وقال في تاريخ الجاهلية: والجاهليون كانوا أُميين لا يخطون ولا يقرأون الخط وخصوصاً في البادية. على أن هذا لا يعني أنّ القراءة والكتابة كانتا مجهولتين لقد كانتا معروفتين في القرى وفي البادية ولكن لم تكونا شائعتين[3].

إذا عرفت ما تمهّد فالكلام يقع في المقام الأوّل وهو فيما يتعلق بشأن النّبي صلى الله عليه وآله قبل البعثة فهل كان أمّياً أبجدياً آنذاك أو لا؟

المعروف بين أصحاب السير ـ بل الظاهر أنّه متفق عليه بينهم ـ أنّه صلى الله عليه وآله قبل النبوة كان أمّياً لا يقدر على قراءة ولا كتابة وكان كعامّة قومه في هذا الوصف وإن كان بارزاً عنهم في أوصاف نفسية كمالية كالصدق والأمانة والخلق العظيم، وكان يعترف له بذلك الناس. وقد تقدم بعض الكلمات فيما يرتبط بذلك.

وربما نسب إلى بعضٍ خلاف ذلك، وأن النّبي صلى الله عليه وآله في هذا المقطع من عمره

(١) تاريخ تمدن اسلامى ١: ٢٥٣.
(٢) تاريخ آداب اللغة العربية ٢: ١٩٧.
(٣) تاريخ الجاهلية: ١٦٤.

الشريف لم يكن أمياً أبجدياً بل كان قادراً على القراءة والكتابة.

ونحن لا نتابع هذه المسألة لمجرد معرفة التاريخ، بل الذي يدفعنا إلى هذا البحث والتنقيب هو أهمية المسألة من حيث ارتباطها الوثيق بشأن إعجاز القرآن ومعارف الإسلام ودفع الشبهة عن حقيقة هذا الدين الحنيف، فلذا يكون البحث عن ذلك بحثاً كلامياً وممارسة ذلك مسألة عقائدية.

والّذي يدلل علىٰ كونه ﷺ أمياً أبجدياً قبل البعثة أمور:

الأمر الأوّل: عدم حكاية قدرة النبي ﷺ على القراءة والكتابة في تاريخ صحيح ولا غيره مع ما ذكر فيه بشأن من كان من العرب يقرأ ويكتب وحصرهم في عدد قليل لا يتجاوز عدد الأصابع معينين بأسمائهم ليس هو ﷺ منهم؛ ومع هذا الوصف لو كان ﷺ غير أمّي لكانت سنّة التاريخ تقتضي ذكره مع وجود دواعي كثيرة على ذلك، ومن جملتها دواعي المخالفين لنبوّته، حتى أنّهم ذكروا في هذا المجال بعض أسفاره إلى الشام وأنّه لقي بعض علماء أهل الكتاب في سفره أو غيره فتعلم منه ما جاء به من القرآن، كما أُشير إليه في الكتاب قال تعالى: ﴿ **لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَ هٰذا لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ** ﴾.

وقد عدّ هذا الدليل بعضهم شاملاً لما بعد البعثة واستدلّ به لإثبات كونه ﷺ أمياً بعد البعثة إلّا أنّه سيأتي البحث عن ذلك.

قال في المحكي عن ويل ديورانت:

الظاهر أنه لم يكن أحد يفكِّر في تعليمه ـ أي تعليم النبي ﷺ ـ القراءة والكتابة، فلم تكن صناعة الكتابة والقراءة ذات أهميةٍ في نظر الأعراب؛ ولهذا لم يكن يتجاوز الذين يعرفون القراءة والكتابة السبعة عشر شخصاً؛ ولسنا نعلم أن محمداً ﷺ قد كتب شيئاً بنفسه، لقد كان له كاتب خاص بعد النبوّة، ومع ذلك فقد جرى على لسانه أعرق الكتب العربية وأشهرها، وقد عرف دقائق الأمور أفضل بكثير من المتعلمين[1].

الأمر الثاني: قوله تعالى: ﴿ **وَ مٰا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتٰابٍ وَ لاٰ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لاَرْتٰابَ الْمُبْطِلُونَ** ﴾[2].

روى في تفسير الصافي عن تفسير القمي أن هذه الآية معطوفة على قول الله تعالى في سورة الفرقان: ﴿ **وَ قٰالُوا أَسٰاطِيرُ اْلأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهٰا فَهِيَ تُمْلىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً** ﴾[3]. فرد الله عليهم بما في هذه الآية.

وكيف كان، فظاهر عدم التلاوة وعدم الخط هو عدم القدرة فإنّه المناسب لنفي الارتياب.

الأمر الثالث: وصف النبي ﷺ بالأُمّي في الكتاب وغيره؛ فإنّه يناسب اتصافه بنفسه بذلك لا باعتبار اتصاف قومه به. قال تعالى: ﴿ **الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ اْلأُمِّيَّ** ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿ **فَآمِنُوا بِاللهِ وَ رَسُولِهِ النَّبِيِّ اْلأُمِّيِّ** ﴾[5].

---

(١) قصة الحضارة حكاها الشهيد المطهري في كتاب: النبي الأمي: ٧.

(٢) العنكبوت: ٤٨.

(٣) الفرقان: ٥.

(٤) الأعراف: ١٥٧.

(٥) الأعراف: ١٥٨.

ولكن الاستدلال مبنيّ على كون الأمّية بمعنى عدم العلم بالكتابة والقراءة، وسيأتي إن شاءالله تعالى بعض الاحتمالات الأخرى في معناه، وناهيك في هذا المجال صحيح معاوية بن عمّار عن أبي عبدالله عليه السلام في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ﴾ قال: «كانوا يكتبون ولكن لم يكن معهم كتاب من عند الله ولا بعث إليهم رسولاً فنسبهم إلى الأميين»[1].

الأمر الرابع: بعض النصوص:

منها: ما رواه في تفسير الصافي عن العيون بإسناده عن الرضا عليه السلام في حديث: «ومن آياته أنّه كان يتيماً فقيراً راعياً أجيراً لم يتعلم كتاباً ولم يختلف إلى معلّم، ثمّ جاء بالقرآن الذي فيه قصص الأنبياء وأخبارهم حرفاً بحرف وأخبار من مضى ومن بقي إلى يوم القيامة».

بناء على أن المراد من عدم تعلّم كتاب هو ما يشمل الكتابة والقراءة ولا أقل من ظهور عدم اختلافه إلى معلّم في إثبات المقصود.

ومنها: رواية مشهورة عند أهل السنّة عن النبيّ صلى الله عليه وآله: «إنّا أمة أمّية لا نكتب ولا نحسب». وسيأتي شأن هذا الحديث ودلالته إن شاء الله تعالى.

ومنها: ما روي في التفسير المنسوب إلى العسكري عليه السلام: قال العالم موسى بن جعفر عليه السلام: فلمّا ضرب الله الأمثال للكافرين إلىٰ قوله: ﴿بسورة من مثله﴾ من مثل محمّد صلى الله عليه وآله من مثل رجل منكم لا يقرأ ولا يكتب ولم يدرس كتاباً ولا اختلف إلىٰ عالم ولا تعلم من أحد؟ وأنتم تعرفونه في أسفاره وحضره حتّىٰ بقي كذلك أربعين سنة ثمّ أُوتي جوامع العلم حتّىٰ علّم الأولين والآخرين... وقال علي بن الحسين: من مثله، مثل محمّد أمّي لم يختلف قط إلىٰ أصحاب كتب وعلم ولا تلمذ لأحد ولا تعلم منه وهو من قد عرفتموه في حضره وسفره؟[2].

وقد يستدل لاحتمال عدم أمّيته صلى الله عليه وآله قبل البعثة بأمور، كقوله تعالى: ﴿وَ قٰالُوا

---

(١) بحارالأنوار ١٦: ١٣٢.

(٢) بحار الأنوار ١: ٢١٤.

﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَ أَصِيلاً﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿وَ لِيَقُولُوا دَرَسْتَ﴾[2].

فإنه لو كانت أمّية النبي صلى الله عليه وآله أمراً مسلماً لم يكن هناك مجال لاتهامه بما في الآيتين.

وردّ على ذلك: أوّلاً: بأن الاكتتاب أعم من مباشرة الكتابة. وثانياً: إنّه لا حدّ للمكابرة والعصبيّة.

وأمّا البحث في المقام الثاني، أعني ما بعد البعثة وأنّه كان أمّياً أبجدياً في هذا المقطع من عمره الشريف أو لا؟

المعروف على الألسن، بل ومال إليه بعض العلماء من الفريقين، أن النبي صلى الله عليه وآله كان بعد البعثة أيضاً أمّياً أبجدياً لا يعرف القراءة ولا الكتابة إلى آخر حياته صلى الله عليه وآله، وربّما ادعي على ذلك الإجماع في بعض الكلمات.

ولكن الإجماع لو كان لا اعتبار به في مثل هذه المسألة التي هي عقائديّة كالمسائل العقلية، مع أنّه لا إجماع في البين بعد تصريح جمع من العلماء بخلاف ذلك.

وكيف كان فقد صرح بالخلاف جمع أو نسب الخلاف إليهم وربّما نسب إلى بعضهم التفصيل بين القراءة فأثبتوها والكتابة فأنكروها. وقد لا ينافي هذا القول تمكّنه صلى الله عليه وآله من الكتابة. وتوقف السيد المرتضى في المسألة حسبما حكاه العلّامة المجلسي واحتمل زوال الأمية الأبجدية عنه صلى الله عليه وآله بعد البعثة وإن نسب إليه في بعض الكلمات غير ذلك سهواً. وممّن صرح بنفي الأمية عنه صلى الله عليه وآله هو العلامة المجلسي فإنّه بعد أن أشار إلى بعض النصوص الّتي ربّما تنافي ذلك وأوّلها قال: وكيف لا يعلم من كان عالماً بعلوم الأوّلين والآخرين أن هذه النقوش موضوعة لهذه الحروف؟![3].

أقول: وهذا القول عندي هو الحقّ الحقيق بالقبول.

---

(١) الفرقان: ٥.

(٢) الأنعام: ١٠٥.

(٣) بحارالأنوار ١٦: ١٣٤.

فإنّ الشواهد والحجج توازرت على قدرته ﷺ على القراءة والكتابة بعد النبوّة، ومما يدل بوضوح على اختصاص عدم القراءة والكتابة بما قبل البعثة وأنّه ﷺ كان قادراً على ذلك بعد البعثة أمور؛ كما وأنّ هناك أموراً قد يستند إليها في إثبات كونه ﷺ أمّياً بعد البعثة كما كان قبلها بمعنى أنّه لا يقرأ ولا يكتب. ونحن نذكر هذه الأمور أوّلاً ثمّ نتبعها بما يدل على اختصاص الأمية بما قبل البعثة.

فنقول ـ بعد التوكّل على الله ـ: ما استدل أو يمكن أن يستدل به لكون النبي ﷺ أمّياً أبجدياً بعد البعثة أمور، وعمدة الوجه هو: وصف النبي ﷺ بالأمّية بعد البعثة وقد تحقق أن المشتق حقيقة في خصوص المتلبس بالمبدأ مجاز في ما انقضى عنه؛

قال تعالى: ﴿ **الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ** ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿ **فَآمِنُوا بِاللهِ وَ رَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ** ﴾[2].

والاستدلال مبني على كون معنى الأمّي هو الأمية الأبجديّة وإذا ثبت بل واحتمل وجود معنى آخر له يكون الاستدلال ساقطاً، وسيأتي إن شاء الله تعالى ما يدل بوضوح على كون الأمّي بمعنى آخر.

وقد يستدل لكون النبي ﷺ أمياً بعد الرسالة ببعض الأخبار مثل رواية الحسن الصيقل قال: سمعت أباعبدالله عليه السلام يقول: «كان ممّا منّ الله عزّوجلّ به على نبيّه ﷺ أنّه كان أمّياً لا يكتب ويقرأ الكتاب»[3].

وفي معنى الخبر احتمالان: الأوّل: أن تكون الواو في قوله: ويقرأ الكتاب، حاليةً عطفاً على النفي لا على خصوص المنفي. والمعنى عليه: أن من منن الله على النبي ﷺ أنّه مع كونه أمياً لا يكتب مع ذلك كان يقرأ الكتاب.

وعلى هذا التقرير يبتني الاستدلال بالخبر على زعم من ذهب إلى أن

---

(١) الأعراف: ١٥٧.

(٢) الأعراف: ١٥٨.

(٣) رواه الصدوق في العلل.

النبيﷺ كان يقرأ ولا يكتب.

الثاني: عطف ويقرأ على المنفي أعني قوله: يكتب، والمعنى أنّهﷺ كان لا يكتب ولا يقرأ.

والاستدلال بالخبر لكون النبيﷺ أمياً أبجدياً يبتني على هذا التقرير.

ولكن كلا المعنيين بعيدان، لعدم مناسبة الأمية على التقديرين مع الامتنان على النبيﷺ بسببها.

ولذلك يحتمل في الخبر احتمال ثالث ربّما كان هو المتعيّن وهو الامتنان على النبيﷺ بسبب اشتماله على العلوم ومنها القراءة والكتابة بعد ما كان أمّياً قبل الرسالة لم يتعلم القراءة والكتابة من أحد.

ويؤكد هذا الاحتمال أنّه لم يعهد إطلاق الأمّي على القارىء إذا لم يتمكّن من الكتابة خاصة. كما ويؤكد هذا الاحتمال أيضاً الحديث الآتي.

كما أنّ الامتنان يستدعي زوال الأمّية عنهﷺ بعد الرسالة وإلّا فلا موجب للمنّة إلّا على بعض الوجوه المشتملة على الكلفة.

وقد يوجّه الامتنان في الحديث بما تضمّنه قوله تعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيٰاتِهِ وَ يُزَكِّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتٰابَ وَ الْحِكْمَةَ** ﴾ ولكن الآية تتضمن الامتنان على الأمّة لا على الرسول نفسه. مع أن المنّة باعتبار كون النبيﷺ منهم وأين هذا من كون المنّة باعتبار كونه أُميّاً مثلهم؟

ومن الروايات معتبرة هشام بن سالم عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «كان النبيﷺ يقرأ الكتاب ولا يكتب».

ولا يبعد اتحاد الخبر مع سابقه فيجري فيه ما جرى في الخبر المتقدم.

وقد وقع الاشتراك في عدة من وسائط الرواة في الخبرين، ولا يحتمل فيه نفي قراءة الكتاب بعد تقديم القراءة على الكتابة هنا، مع أن الخبر هذا مصرح بأنّه كان يقرأ الكتاب وهو ينافي الأمّية. فالاستدلال بالخبر على نفي الأميّة أولى.

ونظير معتبرة هشام رواية أخرى في العلل بإسناده عن البزنطي، عن بعض

أصحابه عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «كان مما منّ الله به عز وجل على رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه كان يقرء ولا يكتب فلما توجه أبوسفيان إلى أُحد كتب العباس إلى النبي صلى الله عليه وآله فجاءه الكتاب وهو في بعض حيطان المدينة فقرأه ولم يخبر أصحابه، وأمرهم أن يدخلوا المدينة فلما دخلوا المدينة أخبرهم»[1].

ولا يبعد وحدة الأخبار الثلاثة، وقد عرفت قصور ها عن الدلالة على كون النبي صلى الله عليه وآله أمياً.

وقد يستدل لدعوى كون النبي صلى الله عليه وآله أمياً بالرواية المعروفة عن النبي صلى الله عليه وآله: «إنّا أمّة أمّية لا نكتب ولا نحسب».

وقد صرح في بعض الكلمات بضعفها، وهي على تقدير اعتبارها سنداً قاصرة دلالة على الدعوىٰ بعد احتمال كونها ناظرة إلى مجموع الأمّة وعمومها لا آحادها، وقد صرح في التاريخ والسير بوجود عدد قليل ومحدود في العرب لم يكونوا أميين.

هذا كلّه مع وضوح الروايات النافية للأمّية بعد الرسالة دلالة وسنداً وكثرتها عدداً، بل وصراحتها بما لا يقبل التأويل فلا تصلح هذه الروايات لمعارضتها. هذا مضافاً إلىٰ موافقة النصوص النافية للأُمية الأبجدية مع القرآن بناءاً على ما تقدم تقريبه من دلالة بعض الآيات على ذلك.

وعدم منافاتها لوصفه صلى الله عليه وآله بالأميّة في بعض الآيات بعد كون الكلمة من الألفاظ المشتركة.

وقد تقدّم بيان العلامة المجلسي في الجمع بين هذه الأخبار، فراجع[2].

ثم إنّ ما يدل على عدم كونه صلى الله عليه وآله أمياً أبجدياً بعد البعثة فهو وجوه:

الوجه الأوّل: إن الكتابة والقراءة علم من العلوم والخبرة بهما من الكمالات العالية وفقدها نقص كبير بل هو عيب فاحش، وقد ورد في روايات واضحة

(١) بحارالأنوار ١٦: ١٣٣.

(٢) المصدر نفسه: ١٣٤.

اشتمال النبيﷺ وأهل بيته على جميع علوم الأنبياء.

فلنا في المقام دعويان: إحداهما أن الكتابة والقراءة علم وفضيلة.

ثانيتهما: اشتمال النبيﷺ على جميع علوم السلف.

أمّا الدعوى الأولىٰ: فهي واضحة لا تحتاج إلى إثبات ومن الغريب ما في بعض الكلمات من إظهار الترديد فيها أو دعوى خلافها. وكيف لا تكون القدرة على القراءة والكتابة فضيلة بعد ما كان العلم بساير اللغات ولغة الحيوانات من معاجز الأنبياء والأولياء.

وكيف كان: فقد أنكر فضل العلم بالكتابة والقراءة بعض مقاربي عصرنا[1] واستظهر ذلك من ابن خلدون حيث ذكر في المقدمة: كان النبيﷺ أمّياً وكان ذلك كمالاً له لأنّه كان يتلقى العلم من السماء. نعم الأمّية نقص لنا لاستلزامها الجهل بالنسبة إلينا[2]. وهذه الدعوى مكابرة مع الوجدان.

وقد ورد في بعض النصوص أن أوّل من خط بالقلم هو إدريس النبي عليه السلام.

روى الصدوق في الخصال والمعاني فيما حكاه في سفينة البحار عن أبي ذر رحمه الله قال: قلت يا رسول الله كم النبيّون؟ قال: مأة ألف وأربعة وعشرون ألف نبي؛ قلت: كم المرسلون منهم؟ قال: ثلاثمأة وثلاثة عشر جمّاً غفيراً؛ قلت: من كان أوّل الأنبياء؟ قال: آدم عليه السلام؛ قلت: وكان من الأنبياء مرسلاً؟ قال: نعم خلقه الله عزّ وجلّ بيده ونفخ فيه من روحه؛ ثمّ قال يا أباذر! أربعة من الأنبياء سريانيون: آدم وشيث و أخنوخ وهو إدريس، وهو أوّل من خط بالقلم ونوح عليهما السلام...[3].

ولا يبعد ظهور هذا الخبر في كون الخط كان إلهاماً إلهياً لنبيّه، كما ويظهر من بعض الأخبار كون التكلّم ومنه العربيّة أيضاً كان إلهاماً، ويؤكده ـ بعيداً عن

---

(١) الشيخ مرتضى المطهري في كتابه المترجم النبي الأمّي. فإنه ذهب إلى ذلك وذكر أن النبيﷺ لم يكن يقرأ أو يكتب في عصر البعثة، صرّح بذلك في الصفحة ١٠ و ١٥ وغيرها.

(٢) نامه هدايت: ١٩.

(٣) سفينة البحار: مادة نبأ عن المعاني والخصال.

الأخبار ـ النظم في اللغات سيما في العربيّة.

فعن النّبيﷺ: «ألهم إسماعيل هذا اللسان العربي إلهاماً»[1].

وعن الباقر عليه السلام: «أوّل من شقّ لسانه بالعربيّة إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام وهو ابن ثلاث عشرة سنة، وكان لسانه على لسان أبيه وأخيه، فهو أوّل من نطق بها وهو الذبيح»[2].

وفي حديث عن النبيﷺ: «أوّل من فتق لسانه بالعربيّة المبينة إسماعيل بن إبراهيم وهو ابن سنة»[3].

وفي بعض الروايات تعلّم آدم للعربيّة، وربما كانت في جملة الأسماء التي علّمها الله تعالى إيّاه، وفي بعضها: إنها لغة أهل الجنة.

وأمّا اشتمال النبيﷺ على جمع العلوم بل وكونهﷺ أعلم من سائر الأنبياء، فقد ورد في روايات عدّة نشير إلى بعضها:

١ ـ عن ضريس الكناسي قال: كنت عند أبي عبدالله عليه السلام وعنده أبو بصير فقال أبو عبدالله عليه السلام: إنّ داود عليه السلام ورث علم الأنبياء وإنّ سليمان عليه السلام ورث داود عليه السلام وإنّ محمداًﷺ ورث سليمان عليه السلام وإنّا ورثنا محمّداًﷺ...[4].

٢ـ صحيحة (ظ) أبي بصير، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قال لي: يا أبا محمّد إنّ الله عز وجل لم يعط الأنبياء شيئاً إلّا وقد أعطاه محمّداًﷺ. قال: وقد أعطى محمّداًﷺ جميع ما أعطى الأنبياء. الحديث[5].

٣ـ عن موسى بن جعفر عليه السلام قال: قلت له جعلت فداك أخبرني عن النبيﷺ ورث النبيين كلهم؟ قال: نعم قلت: من لدن آدم حتى انتهى إلى نفسه. قال: ما بعث الله

---

(١) ميزان الحكمة عن كنز العمّال مادة «عرب».

(٢) المصدر نفسه: عن تحف العقول.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) بحار الأنوار ١٧: ١٣٢، الطبعة الجديدة، وفي تعليقة أصول الكافي ١: ٢٢٥.

(٥) بحار الأنوار ١٧: ١٣٣، الطبعة الجديدة.

نبيّنا إلاّ ومحمّد صلى الله عليه وآله أعلم منه[1].

٤ـ مفضل بن عمر، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: كل نبي ورث علماً أو غيره فقد انتهى إلى آل محمّد عليهم السلام[2].

٥ـ صحيح (ظ) زرارة قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: لولا أنّا نزداد علماً لأنفدنا. قال: قلت: تزدادون شيئاً لا يعلم رسول الله صلى الله عليه وآله؟ قال: أما إنّه إذا كان ذلك، عرض على رسول الله صلى الله عليه وآله ثمّ على الأئمة ثمّ انتهى الأمر إلينا[3].

٦ـ الهروي قال: كان الرضا عليه السلام يكلم الناس بلغاتهم وكان والله أفصح الناس وأعلمهم بكل لسان ولغة فقلت له يوماً: يابن رسول الله: إنّي لأعجب من معرفتك بهذه اللغات على اختلافها فقال: يا أبا الصلت أنا حجةالله على خلقه، وما كان الله ليتخذ حجة على قوم وهو لا يعرف لغاتهم. أوَ ما بلغك قول أمير المؤمنين عليه السلام: أُوتينا فصل الخطاب فهل فصل الخطاب إلاّ معرفة اللغات[4].

٧ـ عمار الساباطي قال: قال لي أبو عبدالله عليه السلام: يا عمار أبو مسلم فطلله وكسا وكسيحه سباطورا[5] قال: فقلت له ما رأيت نبطياً أفصح منك بالنبطية. فقال: يا عمار: وبكل لسان.

٨ـ حسين بن علوان عن أبي عبدالله عليه السلام قال: إنّ الله خلق أُولي العزم من الرسل، وفضلهم بالعلم، وأورثنا علمهم، وفضلنا عليهم في علمهم. وعلّم رسول الله صلى الله عليه وآله ما لم يعلموا وعلمنا علم الرسول وعلمهم[6].

٩ـ عبدالله بن الوليد السمان قال: قال لي أبو عبدالله عليه السلام: يا أبا عبدالله! ما تقول الشيعة في علي وموسى وعيسى عليهم السلام؟ قال: قلت: جعلت فداك ومن أيّ الحالات

---

(١) بحار الأنوار ١٧: ١٣٣، الطبعة الجديدة، وفي تعليقة أصول الكافي ١: ٢٢٦.

(٢) بحار الأنوار ١٧: ١٣٥، الطبعة الجديدة، وفي تعليقة أصول الكافي ١: ٢٣٢.

(٣) بحار الأنوار ١٧: ١٣٦، الطبعة الجديدة، وفي تعليقة أصول الكافي ١: ٢٥٥.

(٤) عيون أخبار الرضا عليه السلام، الشيخ الصدوق ١: ٢٥١.

(٥) لغة الجملة نبطية والعمار كان نبطياً.

(٦) بحار الأنوار ١٧: ١٤٥، چاپ جديد. و در حاشية بصائر الدرجات: ٦٢.

تسألني؟ قال: أسألك عن العلم. فأمّا الفضل فهم سواء. قال: قلت: جعلت فداك فما عسى أقول فيهم؟ فقال: هو والله أعلم منهما ثمّ قال: يا عبدالله أليس يقولون: إنّ لعلي ما للرسول من العلم؟ قال: قلت: بلى، قال: فخاصمهم فيه، قال: إنّ الله تبارك وتعالى قال لموسى عليه السلام: ﴿وَكَتَبْنا لَهُ فِي الْأَلْواحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾[1] فأعلمنا أنّه لم يبين له الأمر كلّه، وقال الله تبارك وتعالى لمحمّد صلى الله عليه وآله: ﴿وَجِئْنا بِكَ عَلىٰ هٰؤُلاٰءِ شَهِيداً﴾[2] و﴿وَنَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾[3].

ثمّ إنّه تجدر الإشارة إلى نقطة، وهي أن الأفضل أولى بالإمامة من غيره، وهذا ما يحكم به العقل الصريح والوجدان السليم. ولكن الفضيلة المرجّحة للإمامة ليست هي مطلق الفضيلة وإنّما هي الفضيلة فيما يتعلّق بالإمامة التي يتصداها الشخص، فمن كان إماماً في سبيل الهداية إلى المعارف فينبغي أن يكون أفضل في العلوم المرتبطة بذلك لا في غيرها، ولذا لا يجب أن يكون النّبي عالماً بالعلوم

(١) الأعراف: ١٤٥.
(٢) النساء: ٤١.
(٣) النحل: ٨٩.

الطبيعيّة كالطبّ والكيمياء ونحوهما.

لا أقول: إن الأنبياء لم يكونوا عالمين بعلوم العلماء في غير ما يتعلق بالمعارف وإنّما أقول: إن العقل لا يحكم بلزوم اشتمال الأنبياء على تلك العلوم، وهذا لا يعني عدم اشتمالهم على الكمالات.

نعم، لابد عقلاً من كون النبي والإمام أفضل من ساير أهل عصره فيما يتعلّق بشأن هداية الأمّة وأعلم منهم في هذا المجال، والنقل أيضاً يؤكد ذلك قال تعالى: ﴿ **أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لاَ يَهِدِّي إِلاَّ أَنْ يُهْدىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ** ﴾.

فيتحصّل مما تقدم أنّه لا يحكم العقل بلزوم كون النّبيﷺ قادراً على الكتابة والقراءة؛ حيث لا مدخل لهما في الفضيلة على فاقدهما بعد أن كان الفاقد محيطاً بكل العلوم المرتبطة بهداية الناس وأفضل من غيره في هذا المجال، ولعله لهذا اشتبه الأمر على من أنكر فضيلة الكتابة والقراءة فلا ينبغي الخلط.

الوجه الثاني: جملة من النصوص تضمّنت صريحاً قدرتهﷺ على القراءة والكتابة.

١ ـ منها: رواية الصدوق في العلل والمعاني ورواها المفيد في الاختصاص والصفّار في بصائر الدرجات وحكاها المجلسي في البحار والبحراني في البرهان وغيرهم. ونحن نحكي رواية الصدوق عن البحار فقد قال: حدثني أبي قال: حدّثني سعد بن عبدالله عن أحمد بن محمد بن عيسى عن أبي عبدالله محمد بن خالد البرقي عن جعفر بن محمد الصيرفي (الصوفي ـ خ) قال: سألت أباجعفر، محمد بن علي عليه السلام فقلت[1]: يابن رسول الله، لم سُمّي النبي الأُمّي؟ فقال: «ما يقول الناس؟» قلت: يزعمون أنّهﷺ سمّي الأمي، لأنّه لم يحسن أن يقرء؛ فقال: «كذبوا لعنة الله عليهم. أنّى ذلك والله يقول في محكم كتابه: ﴿ **هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً**

(١) ورد هذا الخبر ظاهراً في المجمع عن أبي جعفر بقيد الباقر، وليس من البعيد أن يكون من سهو القلم أو من الناسخ.

﴿مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾[1] كيف كان يعلمهم ما لا يحسن. والله لقد كان رسول الله ﷺ يقرء ويكتب باثنين وسبعين أو بثلاثة وسبعين؛ وإنّه سُمّي الأُمّي لأنّه كان من أهل مكة ومكة من أُمّهات القرى وذلك قول الله عز وجل: ﴿لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾[2].

وهذه الرواية معتبرة سنداً ورجالها من أجلاء الفقهاء، وإسنادها عال قريب إلى المعصوم زماناً، قليل الواسطة، وحصول القطع بسببها ليس جزافاً ودلالتها على المدعى واضحة.

هذا مع أن الرواية ـ لولا صحتها ـ تشتمل على خصوصية تمنع من الالتزام بكون النبي ﷺ أمّياً أبجدياً، وذلك لكون العمدة في إثبات الأمية الأبجدية له ﷺ هو ورود وصف الأمّية له في الكتاب والسير، فإذا احتمل كون الوصف باعتبار غير الأبجدية سقط الاستدلال بذلك لإثبات الأمّية من حيث الأبجديّة، وهذه الرواية لو لم تُثبت بوجه قاطع ذلك فلا أقل من فتحها باب الاحتمال.

وهناك رواية أخرى قريبة من هذه الرواية لا يبعد اتحادهما، رواها الصدوق في العلل؛ متنها: عن أبي جعفر عليه السلام قال: قلت: إن الناس يزعمون انّ رسول الله ﷺ لم يكتب ولا يقرء. قال: «كذبوا لعنهم الله أنّى يكون ذلك وقد قال الله عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[3] فكيف يعلمهم الكتاب والحكمة وليس يحسن أن يقرء الكتاب؟!» قال: قلت: فلِمَ سُمّي بالأُمّي؟ قال: «نسبة إلى مكة وذلك قوله تعالى: ﴿لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ فقيل: أُمّي، لذلك»[4].

وربما يشكل صحّة الروايتين من حيث المتن بجهات:

---

(١) الجمعة: ٢.

(٢) بحارالأنوار ١٦: ١٣٢.

(٣) الجمعة: ٢.

(٤) بحارالأنوار ١٦: ١٣٣.

الأولى: إن «أمّ القرىٰ» ليست علماً لمكّة، بل هي وصف عام لها ولغيرها من مراكز البلاد والقرىٰ قال تعالى: ﴿ وَ ما كانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرىٰ حَتّٰى يَبْعَثَ فِي أُمِّها رَسُولاً ﴾[1]. هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى لما كان الغرض من الوصف والإضافة هو التمييز والتخصيص بل التعيين والتوضيح لم يناسب النسبة إلى وصف عام بل كان ذلك لغواً.

الثانية: إنّه قد أطلق الأمّي في القرآن على غير المكّي قال تعالى: ﴿ وَ قُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتٰابَ وَ الْأُمِّيِّينَ أَ أَسْلَمْتُمْ ﴾[2]؛ فإن المراد بالأُمّيين ما يقابل معنى أهل الكتاب، وقال تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتٰابَ إِلاّٰ أَمٰانِيَّ ﴾ حيث إن المراد من الأميين عوام اليهود ممن كانوا يسكنون يثرب وحواليها لا مكّة.

الثالثة: مقتضىٰ قواعد الأدب النسبة إلى المركبات تركيب إضافة هو النسبة إلى المضاف إليه بعد حذف المضاف دون العكس، فيقال في النسبة إلى أبي طالب وأم علي وبني تميم: طالبي وعلوي وتميمي، فكان المفروض على هذا أن يقال في النسبة إلى أم القرىٰ: قرويّ لا أمّي.

وهذه الشبهات كلّها مردودة. وبداراً ينبغي الاعتذار عن صاحب الإشكالات بأنّه لم يطّلع على الرواية وإلّا فالإشكال على الرواية بأمثال ما ذكر يعدّ من الغرائب. ومع الغض عن ذلك فما ذكر من وجوه القدح كلّها مردودة:

أمّا القدح الأوّل فيرد عليه: أوّلاً: أنّه لم يعلم كون أم القرىٰ وصفاً عامّاً فربما كان مشتركاً لفظياً بينه وبين غيره؛ لاحتمال وجود وضع آخر له خاص فكان علماً لمكّة بعد كونه وصفاً عامّاً. وهذا أمر شائع وليس هناك ما ينفي هذا الاحتمال بالغضّ عن الخبر.

وثانياً: لا مانع من إطلاق لفظ موضوع لمعنى على مصداق منه بالخصوص

(١) القصص: ٥٩.

(٢) آل عمران: ٢٠.

إطلاقاً مجازياً بحيث يراد الخصوصية بذلك اللفظ لا مجرد الجري باعتبار المعنى العام.

وثالثاً: لا دليل على عدم صحة النسبة إلى الوصف العام، ودعوىٰ كونها لغواً يدفعها الوجدان؛ فإن الإضافة والنسبة يحققان التمييز والاختصاص، وربّما يحصل الغرض بمجرد الإضافة والنسبة إلى الوصف العام، بل ربّما كان التوضيح بما يزيد على ذلك لغواً أو مخالفاً للغرض. ألاترى أنّه يقال في العرف: فلان قروي وفلان بلديّ وفلان بدوي فهل تكون هذه النسب لغواً؟!

وصحة الاستعمال يكفي لها استساغة الطبع وطباع العرف ـ في شتّى اللغات ـ تصحح النسبة إلى الوصف العام ولا تمنع منه.

وأمّا القدح الثاني فهو أغرب من غيره؛ فإنّه لو سلّم إطلاق الأمّي على معنى سوى ما تضمّنه الخبر من مكّة وفرض كون الإطلاق حقيقيّاً فهل يعني ذلك اختصاص المعنىٰ به؛ وعدم صحة إطلاقه على معنىٰ آخر؟ لعمري ينبغي أن يعدّ ذلك من الطرائف.

وأمّا القدح الثالث: فيرد عليه أنّه ليس هناك ما يعيّن في النسبة إلى المركب بتركيب الإضافة أن تكون النسبة إلى المضاف إليه، وقد أسمعناك أن العبرة في صحة الاستعمال باستساغة الطبع العرفي والتحقيق جواز النسبة إلى المضاف أيضاً.

قال السيوطي وماتنه: أنسب لصدر جملة إسنادية، فقل في تأبط شراً...

وصدر ما ركب مزجاً فقل في بعلبك: بعلي، وانسب لثان تما إضافة إمّا مبدوّة بابن أو أب أو أم كعمري وبكري وكلثومي في ابن عمرو أبي بكر وأمّ كلثوم[1].

وكيف كان: لا ندور في صحة الاستعمال مدار وقوعه، بل يكفي لها استساغة الطباع المستقيمة، مع ما أشير إليه من صحة النسبة إلى المضاف في كلام شارح الألفيّة، بل وعدم صحّة الإضافة إلى المضاف إليه أحياناً لكونه موجباً للّبس وإفهام الخلاف.

---

(١) البهجة المرضية.

٢ ـ ومنها: الحديث المتواتر بين الفريقين من قول رسول اللهﷺ لما حضرته الوفاة: إيتوني بدوات وكتف لأكتب لكم كتاباً لن تضلّوا بعدي أبداً[١].

ولولا ذكر الدوات والكتف لاحتمل أن يكون المراد بالكتابة الفرض والتقدير أو الجعل والتشريع كما في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلاةَ كانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتاباً مَوْقُوتاً﴾؛ إلّا أنّه بعد طلب الدوات والكتف ينتفي هذا الاحتمال رأساً.

واحتمال كون المراد من ذلك مباشرة غيرهﷺ الكتابة ولكنّها بأمره ربّما لا يساعده ظاهر الكلام، حيث إن المفهوم منه هو مباشرتهﷺ للكتابة.

ثمّ إن هذه الرواية لا تدلّ على مجرد قدرتهﷺ على الكتابة، بل تدل على عدم كون ذلك أمراً غير معهود لدى الصحابة حيث لم ينقل استغرابهم لما أرادهﷺ من الكتابة عند وفاته، ولا عدّ ذلك من جملة خوارق العادة والمعجزات؛ ولا أن من ذكر الحديث في عداد أدلّة الإمامة خطر بباله سوى مباشرة النبيﷺ للكتابة، وإن كان هذا الأمر قد يخطر بالبال في باب ذكر الحديث في مسألة كون النّبيﷺ أمّياً أو لا.

ومما تجدر الإشارة إليه أن هذه الرواية تصلح دليلاً لقدرتهﷺ على الكتابة حتى لو لم يثبت سندها ـ مع أن صدورها قطعيّ ـ والسرّ في ذلك أنّه لو كان المعهود منهﷺ الأمّية الأبجديّة بعد كون اتصافهﷺ بالأمّية أمراً قطعياً حسبما دلّ عليه الكتاب وغيره كان جعل الحديث بمضمون واضح الكذب غير معقول بعد كون المقصود بالحكاية أمراً آخر يستلزم أمراً كذباً. فإن المقصود الأصيل بالحكاية هو ما يدلّ على نصب الإمام والمدلول بالتبع هو عدم الأمّية الأبجديّة فتأمل جيّداً، فإنه حريّ بذلك، وله آثار في الروايات وتطبيقات في الآثار. ولذا كان إثبات اللغات بالروايات الضعيفة أمراً جايزاً لكون المقصود بالأصالة في الحديث والخبر

(١) وممّن استدل بالحديث هذا للمدعى السيد المرتضىٰ فيما حكي عنه، بعد أن حكى عن الشعبي وجماعة من أهل العلم أنه ما مات رسول اللهﷺ حتى كتب وقرأ، حكاه المطهري في كتاب النبي الأمّي: ١٦.

هو حكاية المضمون لا إثبات اللغة والأوضاع.

٣ ـ ومنها خبر البصائر عن عبدالرحمن بن الحجاج قال: قال أبوعبدالله عليه السلام: «إن النّبي صلى الله عليه وآله كان يقرء ويكتب ويقرء ما لم يكتب»[١].

ولعل المراد من قراءة ما لم يكتب هو غير العربيّة من سائر اللغات كما في الحديث الآتي.

٤ ـ ومنها خبره الآخر عن الثمالي عن أبي عبدالله عليه السلام قال في قول الله تعالى لما أنزل ألواح موسىٰ عليه السلام أنزلها عليه وفيها تبيان كل شيء كان وهو كائن إلى أن تقوم الساعة... فأخرجوها إليه (يعني إلى محمد صلى الله عليه وآله) فنظر إليها وقرأها وكتابها بالعبراني، ثمّ دعا أميرالمؤمنين عليه السلام فقال: دونك هذه ففيها علم الأوّلين وعلم الآخرين، وهي ألواح موسىٰ عليه السلام، وقد أمرني ربّي أن أدفعها إليك؛ قال: يا رسول الله لست أحسن قراءتها[٢].

٥ ـ وفي رواية أخرى قريب بمضمونها و فيه: أين الكتاب الذي توارثتموه... فأخذه النبي صلى الله عليه وآله، فإذا هو كتاب بالعبرانية دقيق فدفعه إليّ[٣].

٦ ـ ومنها: رواية أبي الصباح الكناني قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وآله وفي يده اليمنى كتاب، وفي يده اليسرى كتاب. فنشر الكتاب الذي في يده اليمنى فقرء: بسم الله الرحمن الرحيم كتاب لأهل الجنة بأسمائهم وأسماء آبائهم لا يزاد فيهم واحد ولا ينقص منهم واحد. قال: ثمّ نشر الذي بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم لا يزاد فيهم واحد ولا ينقص منهم واحد.

٧ ـ ومنها: جملة من النصوص وردت في قراءة النبي صلى الله عليه وآله كتابات في المعراج على أبواب الجنان وغيرها.

ففي رواية عبدالصمد ص١٣٨.

---

(١) بحارالأنوار ١٦: ١٣٦ عن البصائر: ٦٣.

(٢) البحار ١٦: ١٣٧، عن البصائر: ٣٨.

(٣) بحارالأنوار ١٧: ١٣٩ عن البصائر: ٣٩.

وفي رواية أخرى له ص١٣٩.

وفي رواية جابرالأنصاري

وفي رواية للصدوق رواها بإسناده عن سلمان الفارسي.

وفي رواية أبي بصير.

وفي رواية تفسير القمي.

وفي رواية حكاها العلّامة الأميني عن جمع من الحفّاظ منهم الخطيب البغدادي بإسناده عن أنس بن مالك قال: قال النّبيﷺ: «لما عرج بي رأيت على ساق العرش مكتوباً: لا إله إلّا الله محمد رسول الله أيدته بعليّ نصرته بعليّ»[1].

وكذا روى محب الدين الطبري في الرياض عن أبي الحمراء من طريق الملّا في سيرته وفي ذخائر العقبى ومناقب الخوارزمي.

وفي رواية الحويني في الفرائد روايتها بطريقين نحوه.

وبإسناد آخر عن أبي الحمراء خادم النبيﷺ نحوه.

ومثله روى الحافظ السيوطي بأسانيد عن أبي الحمراء كما في كنز العمّال[2] وبطريق آخر عن جابر.

و الهيثمي في مجمع الزوائد والسيوطي في الخصائص.

هذا ما عثرت عليه من النصوص على عجل، ولعل المتتبع يجد مزيد روايات ويعثر على غير ما ذكرناه من النصوص.

نعم، هناك كلام في حقيقة الكلام العرشي الذي وجده النّبيﷺ مكتوباً لما أسري به. وإذا كان النّبيﷺ يقرء مثل ذلك ولو بإعجاز فما ظنّك بكلمات أرضيّة لا مؤونة فيها.

---

(١) الغدير ٢: ٥٠ و ٥١.

(٢) نفس المصدر وراجع كنزالعمال ٦: ١٥٨.

ومنها ما ذكر في تاريخ الطبري وابن الأثير فيما يتعلّق بالسنة السادسة للهجرة وكتاب صلح الحديبية ما يفيد أن النبيﷺ رفع العهد وكتب كلمة بيده، رغم أنه لم يحسن الكتابة.

والمحتمل قوياً أن يكون قول: ليس يحسن يكتب، من اجتهاد بعض الرواة في بعض الطبقات.

الوجه الثالث: قوله تعالى: ﴿رَسُولٌ مِنَ اللهِ يَتْلُوا صُحُفاً مُطَهَّرَةً﴾[1]، فإن تلاوة الصحف ظاهرة في قراءتها عن نظر إليها لا عن ظهر القلب؛ فإنه فرق بين تلاوة الآيات كما في غير هذه الآية وبين تلاوة الصحف.

ويمكن الاستدلال لقدرتهﷺ على القراءة بما تضمّن استحباب قراءة القرآن من المصحف حتى لمن حفظه ويتمكّن من قراءته عن ظهر الغيب، فكيف كان النبيﷺ تاركاً لهذا الأمر، مع أن التكلّم للقراءة أمر بسيط سهل لا يحتاج إلى مؤونة كثيرة.

فقد تحصّل مما تقدّم أن الأسناد والمدارك المعتبرة ومنها النصوص الكثيرة واضحة الدلالة على أن النّبيﷺ بعد الرسالة كان يقرأ ولم يكن أُمّياً، سواء فرض أنّه باشر الكتابة كما في بعض النصوص أو لم يباشرها.

هذا ما تيسّر لنا إيراده في هذه المسألة منذ زمن بعيد وأسأله تعالى أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم وذخراً، وأن يجعل ثوابه لوالديّ اللذين لهما عليّ الحق العظيم، وقد أردف الله تعالى الأمر بالإحسان إليهما بعبادته، غفر الله لنا ولجميع المؤمنين بمحمد وآله الطاهرين، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

(١) البيّنة: ٣، ٤.